الحكيم التّرمذي ومعرفة حقيقة النّفس

Al-Hakim al-Tirmidhi and knowledge of the reality of Self.

البشير قلاتي[1]

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
ALBACHIR65@YAHOO.COM

تاريخ الوصول./ :2019/02/02 القبول: 2019/08/04 /النشر على الخط: 2019/09/15

Received: 02/02/2019 / Accepted: 04/08/2019 / Published online : 15/09/2019

ملخّص:

اهتمّ الصُّوفية المسلمون بقضية النّفس الإنسانية، محاولين البحث في طبيعتها وخصائصها ودورها في حياة الإنسان ومصيره؛ باعتبار أن معرفتها ضرورة لمعرفة الله و القرب منه...و لقد كان (الحكيم الترمذي) من بين أهمّ صوفية القرن الثالث الهجري اهتماما بقضية النّفس؛ حيث ركّز جهدا كبيرا في تحليل طبيعتها وتفكيك مكوناتها وفتح مغاليقها مع بيان عميق للفروق بينها وبين الذّات، القلب والصدر....

لا ريب أن العصر الذي نعيش فيه اليوم والتحديات التي تواجهنا، نفسيا واجتماعيا تضعنا في موقف نحن في أشد الحاجة إلى دراسة مثل هذه الأبحاث لعلماء سبروا أغوار النّفس الإنسانية، حتى نتمكن من مواجهة هذه المادية الجارفة التي تطغى على البشرية في اللحظة التاريخية التي نعيش أحداثها اليوم.

الكلمات المفتاحية: .- الحكيم الترمذي. - الصُّوفية. -معرفة النّفس.

Abstract:

Muslim Sufism took care of the cause of human soul, trying to investigate its nature, characteristics and its role in human life and destiny, as its knowledge is necessary to know God and its closeness ...

AL-Hakim al-Tirmidhi was among the most important mysticism of the third century AH concern for the cause of self; A great effort in analyzing its nature, dismantling its components and opening its closures with a deep statement of the differences between them and the self, heart and chest.

There is no doubt that the age in which we live today and the challenges facing us, psychologically and socially, put us in a position that we need to study such research for scientists who have explored the depths of the human soul, so that we can face this sweeping materialism that overwhelms humanity in the historical moment we live in today. ...

key words: - Al-Hakim al-Tirmidhi . - Sufism . - knowledge of Self.

[1] المؤلف المرسل: البشير قلاتي الإيميل: ALBACHIR65@YAHOO.COM

المقدمة

كان للصّوفية المسلمين، خاصة في عصور التصوّف الأولى (القرن الثاني والثالث الهجري)، رؤية معتبرة في الإجابة عن سؤال معرفة النّفس الانسانية، وهو السؤال الذي شغلهم، باعتبار تعلقه ببداية سلوك طريق السير إلى الله، فمعرفة النّفس، أساس معرفة خالقها ؛ والمعروف عند الصوفية أن:" من عرف نفسه عرف ربّه" ؛و يتفاوت الناس في معرفتهم بربهم على قدر معرفتهم بنفوسهم [1]. والأمور تدرك بمقابلاتها، فمن عرف عجزه عرف قدرة ربه، ومن عرف ضعفه عرف قوة ربه، وهكذا في كل شيء، وهو ما يشير إليه إبن عطاء الله السكندري في إحدى حكمه:" تحقّق بأوصافك يمدُّك بأوصافه، تحقّق بذُلّك يمدّك بعزّه، تحقّق بعجزك يمدك بقدرته، تحقّق بضعفك يمدُّك بحوله وقوّته..". [2]، كما أن التقرير الإلهي في آية التغيير التي جاءت في القرآن تركز على تغيير ما بالنفس كأساس للإعانة الإلهية في التّغيير، سواء على مستوى الفرد أو على مستوى الجماعة، قال تعالى:" إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم" (الرعد/11)، و لا ريب أن تغيير ما بالنفس يبدأ أولا بمعرفتها معرفة شاملة وعميقة، ومن هنا تطرح إشكالية معرفة النّفس عند الصوفية، الذين اهتموا بسبر أغوار النّفس وكشف حقيقتها، باعتبار أنهم أصحاب الحقائق وتركيزهم على التربية الذاتية لتحقيق الطُّهرانية النفسية، للوصول إلى الحقائق العليا، والعرفان الكلّي.. وعليه احتوى التراث الصوفي على مبحث أساسي في محاولة التعرف على النفس، موضوعا للتربية والتزكية .

وكان من أوائل من اعتنى بذلك من الصُّوفية: الحارث بن أسد المحاسبي (165-234هـ)، أبو حامد الغزالي (450-505هـ)....والحكيم الترمذي..... ويمكنني اعتبار الحكيم الترمذي-وهو أقل صاحبيه شهرة- أكثرهم إهتماما بدراسة النفس وسبر أغوارها بدليل عديد الكتب التي ألفها في الموضوع، التي تم اعتمادُها كمصادر في هذا المقال، مثل كتاب: رياضة النفس، معرفة الأسرار، أدب النفس، ختم الأولياء، غور الأمور، آداب المريدين، الأكياس والمغترون، الاحتياطات... حتى أن الكثير من كبار الصوفية تأثّروا بكتبه واعتنوا بالتعليق عليها، كالامام الغزالي والشيخ محي الدين بن عربي وغيرهم.

أحاول في هذا المقال التعريف بالحكيم الترمذي و أطرح إشكالا معرفيا حول النفس عند الحكيم الترمذي، طبيعتها، خصائصها، كيفية تزكيتها لتحقيق القرب الذي ينشده المسلم ؛تحقُّقا بمعاني العبودية الخالصة لله...

([1])- علي بن عبد الرحمن بن محمد العمراني، نصيحة المريد في طريق أهل السلوك والتجريد، تحقيق عاصم ابراهيم الكيالي، بيروت: دار الكتاب العلمي، ط1، 1426هـ/2005م، ص 301.

([2])- إبن عطاء الله السكندري، الحكم العطائية، شرح إبن عبّاد الرندي، إعداد ودراسة: محمد عبد المقصود هيكل، إشراف ومراجعة عبد الصبور شاهين، ط1، القاهرة: مركز الأهرام، 1408هـ-1988م، ص74. .

الحكيم الترمذي، نشأته ومكانته بين علماء التصوّف:

- **نشأته:** هو أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن بشر الترمذي المشهور بالحكيم الترمذي، وهو غير أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (209هـ-279هـ)صاحب السنن المشهورة بسنن الترمذي، الذي كان معاصرا له. أُختلف في تاريخ ميلاد الحكيم الترمذي بين 201، 205 و215 للهجرة، كما اختلف في تاريخ وفاته بين 295، 300، 318، و320 للهجرة، وإن رجّح الباحث :وجيه أحمد عبد الله، ميلاده بعام 205هـ ووفاته عام318هـ. [1]، فيكون بذلك قد عاش ثلاث عشرة ومائة سنة...ورجح آخرون غير ذلك. المهم هو أنهم اتفقوا على أنه عاش في القرن الثالث للهجرة، عصر ازدهار التصوّف.

ولد الحكيم ب(ترمذ) إحدى مدن خراسان وهي التي ارتبط اسمه بها، وكانت خراسان تلقب بحق ب"مهد الصوفية"، حيث خرج منها أشهر أعلام التصوف منهم داوود الطائي، معروف الكرخي، الفضيل بن عياض، إبراهيم بن أدهم، شقيق البلخي [2] . يرى البعض أن الترمذي لقب بالحكيم لتضلُّعه بالفلسفة، وهي محبّة الحكمة، ولبصيرته في سبر أغوار النفس وتفحص خباياها، و أطلقوا عليه لقب :**حكيم الأولياء**، لتأكيده على مرتبة الولاية التي تربط الخالق مع الخواص من عباده الذي آتاهم الله الحكمة[3].وأرجع آخرون لقبه هذا لزهده وورعه وسبره باطن الأمور وأسرار العلوم، كما يقول محقق كتابه إثبات العلل، الذي يعتبره من أساطين الحكمة الغيبية في الإسلام. [4]

نشأ الحكيم في أسرة علم ودين ؛ أبوه علي بن الحسن عالما بالحديث والفقه، وكان معلمه الأول، [5]، أما والدته فكانت امرأة فاضلة على دراية بعلم الحديث، وتبدو زوجته امرأة فاضلة صالحة، حيث كانت كثيرا ما ترى لزوجها الرؤى فتتحقق كفلق الصبح كما يروي في كتابه :بدوّ الشأن [6]، يذكر فيه أن الله قيّض له، وهو في الثامنة من عمره جوا ملائما للالتزام الديني والخلقي، بدلا عن تضييع الوقت في اللّعب، ولما بلغ السابعة والعشرين حج بيت الله الحرام وكان لرحلته إلى مكة تأثيرا كبيرا في تكوينه العلمي وتوجهه الصوفي، حفظ القرآن ودرس الحديث في العراق ومر بالبصرة، كانت معاناته مع حيرى روحية، كما يذكر في رسالته، ما دفعه إلى الخلوة بنفسه عن النّاس مشتغلا بالذكر والدعاء إلى الله ليهديه سواء السبيل، ويلاحظ أن الحيرة النفسية

([1])- وجيه أحمد عبد الله، الحكيم الترمذي واتجاهاته الذوقية، ط1، الاسكندرية:دار المعرفة الجامعية، 1989م، ص ص23، 27.

([2])- الحكيم الترمذي، إثبات العلل، تحقيق ودراسة خالد زهري، ط1، الرباط: كلية الآداب والعلوم الانسانية، 1998م، ص13.

([3])- وجيه أحمد عبد الله، المرجع السابق، ص22.

([4])-الحكيم الترمذي، إثبات العلل، المرجع السابق، ص 17.

([5])-نفس المرجع، ص 14.

([6])- يورد عثمان اسماعيل يحي محقق كتاب، ختم الأولياء، للحكيم الترمذي في الفصل الأول منه رسالة: بدو شأن أبي عبد الله الحكيم الترمذي، التي كتبها الحكيم نفسه، التي يروي فيها بداياته في طريق السلوك الصوفي، مع ذكر رؤى زوجته التي تبشره بفتوحاته الروحية، أنظر كتاب ختم الأولياء، بيروت: المطبعة الكاثوليكية، دط، 1965، ص14...32 أنظر أيضا، وجيه أحمد عبد الله، المرجع السابق، ص 32....35.

الروحية بدايات أشهر الصوفية عبر التاريخ، وهو ما جرى مع الحارث بن أسد المحاسبي، كما يرويه في كتابه "الوصايا" [1]وأبي حامد الغزالي، الذي خلّد ذلك في كتابه "المنقذ من الظّلال".... في الخلوة الصوفية، التزم الحكيم قيام الليل، متورعا زاهدا، مجاهدا لنفسه حتى أنه كان يحملها على ما تكره رغبة في إذلالها، كان يمشي في الأسواق حافيا، لابسا ثياب الفقراء، كما يقول، حتى فتح الله عليه، لكنه تعرض لمحن كثيرة، كان أشدها عليه وشاية وسعاية بعض أهل بلخ عليه عند الوالي، حيث زعموا أنه ادعى النبوّة، فتعرض بذلك إلى إيذاء كبير، صبر عليه واحتسبه عند الله.فرفع الله عنه أيدي السعاة وأهل الحقد، حتى أنهم جاؤوه يطلبون منه العفو ويرجونه أن يقبلهم في جملة تلاميذه ومريديه.. [2]...زاد إقبال المريدين عليه حتى ضاقت بهم الدار فانتقلوا إلى المسجد، وكان من مريديه بعض كبار الصوفية منهم :منصور بن عبد الله بن خالد الهروي و الحسين بن علي الجوزجاني، وأبو بكر الورّاق الترمذي وغيرهم... [3].

-مكانته بين علماء التصوّف:

ذكره الصُّوفي المشهور فريد الدين العطار[4] في كتابه تذكرة الأولياء قال:"محمد بن علي الحكيم الترمذي، له قبول عظيم عظيم عند الخلق، وشفقة عليهم ورياضات كثيرة وكرامات عالية.." [5]، وذكره أبو عبد الرحمن السلمي في الطبقات الصوفية، بأنه من كبار مشايخ خراسان ننقل عنه اكبار الصوفي كلام في الحكمة والمواعظ[6]' وقال عنه عبد الوهاب الشعراني في الطبقات:"لقي أبا تراب النخشي، وصحب ابن الجلاّ، وهو من كبار مشايخ خراسان وله التصانيف المشهورة، ..كان يقول ما صنفت حرفا من تدبير ولا لينسب إلي شيء من المؤلفات، ولكن كان إذا اشتد علي وقتي أتسلى به، سؤل مرة عن صفة الخلق فقال: ضعف ظاهر ودعوى عريضة، ، ، وقال كفى بالمرء عيبا أن يسره ما يضره "[7].

كان للحارث بن أسد المحاسبي (165-234هـ) أثر كبير على الحكيم الترمذي، سواء في مضمون السلوك الصُّوفي أو في أسلوب الكتابة والتأليف المعتمد على الحوار، وطريقة سؤال وجواب، كما سيأتي بيانه، ، ، كما كان للحكيم، بدوره، تأثيرا واضحا على أبي حاد الغزالي وبقية الصوفية الكبار من بعده، منهم أبو طالب المكي.... وامتد أثره حتى القرن العشرين من

([1])-الحارث بن أسد المحاسبي، الوصايا، ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، ، 1406هـ/1986م، ص61.

([2])- الحكيم الترمذي، ختم الأولياء، تحقيق عثمان إسماعيل يحي، بيروت: المطبعة الكاثوليكية، دط، 1965م، ص14...20.

([3])- وجيه أحمد عبد الله، المرجع السابق، ص64، 65.

([4])- فريد الدين العطار:، أبو حميد بن أبي بكر ابراهيم (ت1146 م): شاعر فارسي متصوف من صوفية نيسابور، عاش في القرن الثاني عشر الميلادي. الميلادي. من أشهر أعماله : منطق الطير .تذكرة الأولياء، إلهى نامه، ديوان عطار، مصيبت نامه .....

([5])-فريد الدين العطار نيسابوري، تذكرة الأولياء، ترجمة محمد الأصيلي الوسطاني الشافعي، تحقيق محمد أديب الجادر، دار المكتبي للطباعة والنشر والتوزيع، 2009م، ص 621.

([6])- عبد الرحمن السلمي، الطبقات الصوفية، ط2، تحقيق أحمد الشرباصي، القاهرة: طبعة كتاب الشعب، 1998م، ص70، 71.

([7])- عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، تحقيق أحمد عبد الرحمن السايح، ط1، القاهرة: دار الفكر، ج1، د.ت، ص91.

خلال تأثيره على العالم الفرنسي (رينيه جينيو René Guénon). [1]..وكان الصوفي المشهور محي الدين بن عربي يطلق عليه لقب:"حكيم ترمذ"، ونقل عنه في كتبه: الفتوحات المكية"، و ألّف عنه كتاب:" الجواب المستقيم عمّا سُؤل عنه الترمذي الحكيم"، كما يُعتقد أن أبا حامد الغزالي قد تأثر في ما كتبه في (الإحياء) بكتاب التّرمذي :" الأكياس والمغترين"...' وحتى إبن القيم ينقل عنه فصولا في كتابه "الرُّوح"..[2].

أسلوب الخطاب عند الحكيم الترمذي.

يتميّز أسلوب التّرمذي باعتماد الحوار في تقرير الأفكار، والاستدلال عليها، والابتداء بطرح سؤال، ثم يشرع في الإجابة، وهو ما يغلب في كتابه " أدب النفس"، حيث يبدأ أكثر فصوله بعبارة : "قال له قائل: وما رياضة النفس؟.."..أو عبارة :"وقيل له : فبماذا يوجد اليقين؟.."..ثم يجيب... [3] ويبدأ فصولا في كتاب آخر بعبارة: "وسألتَ.."....ثم يجيب ... [4] .

كثيرا ما يعمد الحكيم الترمذي إلى ضرب الأمثال الحسية المشاهدة لتوضيح أفكاره، مثل فكرة المجاهدة التي تعتبر أساس السلوك عند الصوفية وترجع إلى الخوف من الله، ويضرب لها مثلا بالسير في طريق متشابك الأشجار لا يُرى فيه إلا موضوع القدم، فإذا حصده السالك وقطع أشجاره، يظهر له أثر أسد، حينها ستشعر بخوف شديد، لم تكن يشعر به قبل إزالة الأشجار والأعشاب، وكذلك صدر ابن آدم إذا قطع عنه الأغيار جاءته الأنوار، حيث يجد آثار الملكوت فيحصل له الخوف من الملك... [5] ...كما تلاحظ بساطة أسلوبه وابتعاده عن تقعُّرات الألفاظ ومُعقّداتها المعروفة عند متفلسفة الصوفية، كابن عربي ؛ ما يجعل القاريء يستوعب أفكاره، رغم عمقها، والتزامه الأسلوب الحواري المباشر:سؤال وجواب، وهو الأسلوب المعروف عادة عند الكثير من الصوفية، لعلّ أولهم الحارث بن أسد المحاسبي عبر حواراته مع الجنيد وهو حدث (الذي يعتبره أهل السنة سيد الطائفة الصوفية). [6].. كما ألاحظ، حرصه على أقران بعض العبارات بالعربية بما يوضحها بعبارات فارسية، ولعلّه في ذلك يعمد إلى تثبيت أصل العبارة التي قيلت، زيادة في التوضيح، مثل كتابة الثبات، وبعدها يكتب (الدّاش) بالأعجمية [7] كما يضمن كتابه "ختم الأولياء" بكثير من العبارات الفارسية إلى جانب العربية، في صفحات كثيرة.. [1] .كما

([1])- فيلسوف فرنسي، ولد بباريس يوم 15 نوفمبر1886م، كان اسمه (رينيه جينو) قبل اسلاميه، درس الفلسفة بالجامعة واهتم بدراسة اللاهوت، في عام 1909م عُيّن أسقفا، ، ، ثم قادته دراساته الروحية المستفيضة الى اعتناق الاسلام عام 1912م فسمى نفسه (عبد الواحد يحيى)، نشر عام 1927م كتابه =:ملك العالم، ثم كتاب أزمة العالم الحديث، ، ، انتقل إلى مصر وسكن القاهرة عام 1930، ، ، وبقي بها حتى وفاته عام 1951م، التقى به شيخ الازهر عبد الحليم محمود ووصفه بأنه حجة الاديان عامة وحجة الاسلام خاصة.....

([2]) – الحكيم الترمذي، ختم الأولياء، مرجع سابق، ص 38.

([3])- المرجع السابق، ص 34، 35.

([4])- الحكيم الترمذي، آداب المريدين، وبيان الكسب، تحقيق وتعليق وتقديم، عبد الفتاح عبد الله بركة، د.ط، القاهرة: مطبعة السعادة، ص44...54.

([5])- نفس المرجع، ص59.

([6])-)- المحاسبي، الرعاية لحقوق الله، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، ط 4، بيروت: دار الكتب العلمية، ص5، 6.

([7])- الحكيم الترمذي، معرفة النفس، ص145.

.كما ألاحظ، في مجمل ما كتبه، قرآنيّته، حيث يستمدّ معظم مفاهيمه وأفكاره من القرآن الكريم، مستندا إلى آياته، شارحا، محللا، وأظهر ما يكون ذلك في كتابه : المسائل المكنونة" [2]وهذا بخلاف الحديث الشريف، التي لا أراه يستشهد به في مجمل كتبه إلا قليلا، رغم أن تكوينه الأصلي كان في الحديث، بما تلقاه عن والده، علي بن الحسن، رحمه الله تعالى.

غاية خلق الإنسان عند الحكيم الترمذي:

يرى الحكيم أن الأساس العقدي الذي يقوم عليه الدّين هو أساس الخلق، وهذا من المسلمات التي يوجبها الشرع ويقرُّها العقل، فالإنسان مخلوقٌ لله كغيره من موجودات الكون، والغاية من خلق الانسان إظهار الربوبية وتحقيق العبودية:" وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون" (الذاريات/ 56)، فالله خلق الانسان له (ليعبده) وخلق الكون للإنسان، بتسخيره له؛ ليقوم بمهمته التي خلقه من أجلها، وهي العبادة.ويفرق الحكيم بين العبادة والعبودية، فالعبودية صفة ملازمة للانسان قهرا، أي في طبيعة خلقه وتقابلها عن الله الربوبية، أما العبادة فهي اختيار للعبد بما يعطي حق العبودية، وعليها مدار المحاسبة، وتكون عن فهم ووعي.. [3]

يرى الحكيم الترمذي أن التوحيد جوهر العبادة، وقد خلق الله تعالى السماوات والأرض وما فيها وخلق الانسان، كرمه وأسجد له ملائكته، لبيان القدرة، ومنحه حرية الاختيار إما شاكرا وإما كفورا، وجعله ضعيفا ليشعر بالحاجة إلى مولاه، وقدّر له رزقه وحدّد أجله وحالاته الجسدية والمادية، حتى يطمئن ولا ييأس: "لكي لا تأسُوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم.."(الحديد/23)، وهذا على سبيل المعرفة لا على سبيل الإجبار، ولهذا أوجب عليه السعي في طلب الرزق... [4].

طبيعة النّفس عند الحكيم الترمذي:

لا نشك أن للمتصوّفة المسلمين، خاصة في عصوره الأولى (القرن الثاني والثالث الهجري)، رؤية معتبرة في الإجابة عن هذا السؤال المحوري عن طبيعة النّفس الإنسانية..الذي شغلهم ؛باعتبار أن قطب الرحى في الطريق الصوفي، هوأن معرفة النّفس سبيل معرفة خالقها؛ لأن:" من عرف نفسه عرف ربّه" [5].يرى الإمام القشيري[6]، أن النفس "ليست الوجود ولا القالب

([1])- الحكيم، ختم الأولياء، مرجع سابق، ص ص 23، 29، 30، 32 ..

([2])- أنظر : الحكيم الترمذي، المسائل المكنونة، تحقيق، محمد إبراهيم الجيوشي، ط1، القاهرة: دار التراث العربي، 1400هـ-1980م.

([3])- الحكيم الترمذي، ختم الأولياء، مرجع سابق، ص 120

([4])- الحكيم الترمذي، أدب النّفس، تحقيق وتعليق لأحمد عبد الرحيم السايح، ط1، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 1413هـ-1993م، ص11...17.

([5])- علي بن عبد الرحمن بن محمد العمراني ، م، س، ص 301

([6])- القشيري:هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة أبو القاسم، القشيري، من مشاهير الصوفية، ولد بقرية تدعى "إستو" من قرى "نيسابور" سنة 346 هـ، تتلمذ على الصّوفي المشهور أبا علي الدقّاق، اشتهر برسالته في التصوف والتي حملت اسمه، له مؤلفات أخرى منها: لطائف الاشارات في التفسير، رسالة ترتيب السلوك.. توفي عام 465هـ.

الموضوع (البدن)، وإنما هي ما كان معلولا من أوصاف العبد ومذموما من أخلاقه، ، والمعلولات هي : ماكان كسبا له كمعاصيه ومخالفاته، وأخلاقه الدنيئة، فهي نفسها مذمومة، فإذا عالجها ونازلها تنتفي عنه بالمجاهدة...ومعالجة الأخلاق في ترك النفس وكسرها، هو أتم من مقاساة الجوع والعطش والسهر...أما الرُّوح فهي لطيفة مودعة في القالب (البدن) وهي محل الأخلاق المحمودة..."[1]. .وبعض الصوفية لا يرون فرقا بين (النفس) و(الروح)، ، ، حيث أن الروح هي النفس باختلاف المراتب والمراحل، فمادامت النفس مسجونة في حجاب الجسد تسمى نفسا، حتى إذا انعتقت منه سُميت روحا...[2].

والحكيم الترمذي عالم بالحديث و يتكلّم عن النفس كعالم من علماء التصوّف، وهو الذي يعرف الصوفي بأنه : "من صفا لله في المعاملة، وحقّق الصفاء من نفسه وامتلأ من عظمة ربّه...". [3]، أي ربط التصوّف أصلا بتربية النّفس على الزهد وحملها على حقيقة العبودية لله وحده دون علاقة.

وللحكيم الترمذي رؤية عميقة للنّفس، التي خصّص لتحليلها وتفكيكها، دراسات عديدة، نظرا لأهميتها، وموقعا المركزي كمحلّ للتربية والتسليك الصوفي؛ يرى الحكيم أن النّفس، نفسان: نفس ظاهرة ونفس باطنة ؛فالظاهرة متابعة لمن قادها (أي شخصية صاحبها) المقصودة بقوله تعالى:" تعلم ما في نفسي " (المائدة/116) وفي قوله :" يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها" (النحل/11)، فهي تكون نورانية إن غلبت عليها أنوار الهدى، وهي ما تشير إليه الآية :" يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا" (آل عمرا/30) وتكون ظلمانية إن غلبت عليها ظلمة الشهوات، وهي ما تشير إليه تكملة الآية " وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا، ويحذّركم الله نفسه" (آل عمران30)، وأما الباطنة فهي الأمارة بالسوء، المغوية بالشهوات، النفس المذمومة، التي تشير إليها الآية:" إن النفس لأمارة بالسوء"(يوسف/53)..... [4]

وطبيعة النفس الباطنة، ظلمانية، شهوانية، كائدة لصاحبها متقلّبة؛ لأنها تميل إلى أصلها الترابي، ولهذا رفض إبليس السجود لآدم، تكبرا، أن يسجد لمادة سفلية، لكنه غفل عن الحكمة التي جعلت الله يمنح الحرية لآدم في اختيار السبيل في ترويض نفسه والتسامي بها بالتزكية، حتى تصبح مطمئنة إلى ربها، وهو يشير إليه قوله تعالى: "ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دسّاها"(الشمس/7..9)؛أي من أصلح نفسه الباطنة صلحت نفسه الظاهرة، ونتيجة ذلك الإصلاح، الفورز والفلاح :" يا أيتها النفس المطمئنة، إرجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي"(الفجر/27...29) [5]، ومن رحمة الله بعباده أن الله أباح الطيبات من الشهوات :"قل من حرم زينة الله التي

([1])- القشيري، الرسالة، الرسالة القشيرية، تحقيق عبد الحليم محمود ومحمد بن الشريف، القاهرة: مطابع مؤسسة دار الشعب1409 هـ. هـ/1987م، ص174.

([2])- نفس المرجع، ص281.

([3])- الحكيم الترمذي، معرفة الأسرار، تحقيق ودراسة محمد إبراهيم الجيوشي، د ط، القاهرة: دار النهضة العربية، 1978، ص48.

([4])- الحكيم الترمذي، غور الأمور، ضبط وتحقيق أحمد عبد الرحيم السايح وأحمد عبده عوض، ط1، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1422هـ. 2001م، ص38، 39

([5])- نفس المرجع، ص39..41.

أخرج لعباده والطيبات من الرزق"(الأعراف)، حتى يحدّ من غلواء النفس الباطنة، مع التأكيد على واجب الشكر والعمل الصالح:" كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون" (البقرةم173)، و " كلوا من الطيبات واعملوا صالحا" (المؤمنون/51). [1] وقد ركّز الحكيم على ما يسميه النّفس الباطنة، التي يرى أن أصلها ريح حارة ؛منبع الشهوات الظلمانية، خلقها الله من دخان بباب جهنّم، مسكنها الرئة، حركتها هوى وعملها شهوة، مسكنها الجوف، ومنها النتن والقذارة[2].

خصائص النفس الباطنة عند الحكيم التّرمذي.

يؤكد الحكيم الترمذي على الخصائص الخسيسة للنفس الباطنة التي تتميز ب :الترابية، الشهوانية، الحرارية، الظلمانية: التقلّبية والاضطراب والوسوسة...وهي كلها خصائص تعبر عن دناءة وسوء، وعليه، فهي لا تأمر إلا بما فيها:" إنّ النّفس لأمّارة بالسوء" (يوسف/ 53)، وهي غير النّفس الظاهرة التي تتمثل ما يغلب عليها، كما سيأتي، أما القلب فهو حوض الأنوار ومعدن الفطرة والضياء، في طبيعة تكوينه، إلا إذا غلبت عليه النفس، وهنا نلاحظ، حسب ما يقرره الحكيم الترمذي، أن النفس الظاهرة (الذّات) تقع تحت تأثير القلب النوراني من جهة، والنفس الباطنة الظلمانية من جهة أخرى، وحالها يكون بتغلب أي أحد هاذين المؤثرين، إذا تغلب القلب استنارت، وإذا تغلبت النفس الباطنة أظلمت... [3]

(رسم بياني لتأثير القلب والنّفس الباطنة على النّفس الظاهرة) [4]

(1)-نفسه، ص49، 50 .

(2)- الحكيم الترمذي، معرفة الأسرار، مرجع سابق، ص 46.

(3)- الحكيم الترمذي، غور الأمور، مرجع سابق، ص38، 39.

(4)- وجيه أحمد عبد الله، الحكيم الترمذي واتجاهاته الذوقية، مرجع سابق، ، ص279.

حقيقة النّفس، وهل هي الذّات؟.

نلاحظ أن الصُّوفية في عمومهم يفرقون بين النّفس والذّات، حيث أنهم كثيرا ما يوردون حوارات بين الصوفي ونفسه الباطنة، التي تطلب الشهوات ونيل الأغراض بدافع الهوى وهو يجادلها محاولا إقناعها بخطورة ذلك وعاقبته ..ولهذا حوت معظم كتبهم التحذير الشديد من مكائد النفس الباطنة التي لا تزال بالعبد تلح عليه، حتى تغويه بالشهوات التي فيها هلاكه، ولهذا حرص الحكيم الترمذي في مجموع كتبه الروحية على التنبيه إلى حقيقة النفس الباطنة المخادعة منبّها إلى وجوب الحذر منها ومن مكائدها التي يعتبرها أشد وأخطر على الإنسان من كيد الشيطان التي يقول فيه الله تعالى:" إن كيد الشيطان كان ضعيفا" (النساء/76)...وتظل النّفس تتململ، كما يقول الحكيم، عند ما تجد صدا لها عن تلبية رغائبها ومنعها شهواتها ولا تزال تلح وتلح، لغلبة الهوى عليها وحرارة الشهوة، وهنا يتخيّل حوارا بين الأنا والنفس الباطنة، في محاولة لإقناعها، تقول الأنا :" أيتها النفس، إن كنت آمنت بربك، فحقيقٌ أن يكون كلام رب العالمين ووعده وضمانه وتكفّله أثبت عندك و أؤكدُ وأقوى مما تبصرينه من المشاهدة...". ثم تتواصل معها على نفس السياق، في شأن قلقها على الرزق وميلها إلى المكسب الحرام.... [1]

جديرٌ أن أشير، هنا، إلى أن بعض الأساتذة المعاصرين في الدراسات النفسية الحديثة يقرُّون ذلك، منهم باحث مصري درس الموضوع من خلال كتاب :" أنا تتحدث عن نفسها" [2] ، وأعتقد أن الحكيم الترمذي يتميّز بقدر كبير جدا ممّا يسميه هذا الباحث: الذكاء الروحي أو الوجودي.[3] ، يؤكده ما كتبه عن النفس : طبيعة، تقسيمًا وتفكيكًا، و بيانه لطرق تعديل سلوكها بالمجاهدات الروحية، بما يستمده الحكيم شخصيا من إلهام، وهو ما شهد له به بعض كبار الصوفية.... [4].والقاريء لكتب الحكيم الترمذي يلاحظ أنه من أكثر الصوفية الذي اعتنوا بتحليل النفس الإنسانية تحليلا دقيقا ، مع حفر عميق في مفاهيم النفس الإنسانية بحثا عن الفروق بين النفس الباطنة، والنفس الظاهرة، ، الصّدر، القلب، الفؤاد و اللبّ.كما سيأتي بيانه...حتى أنه كتب في ذلك كتابه:"بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب".[5]

يعتقد الحكيم أن النّفس الباطنة كلها آفات، بغرورها وتواكلها وإعجابها، وحبها للشهرة والمراءاة، ومنِّها بالعمل وإدلالها على صاحبها وتعاليها على الناس، وهذه الصفات كلها تحجب العبد عن ربه .. محاسبة على ما يصدر عنها بإرادتها، وهي

([1])- الحكيم الترمذي، أدب النفس، مرجع سابق، ص20...23.

([2])- عمرو الشريف، أنا تتحدث عن نفسها، ط2، مصر: مكتبة الشروق الدولية، ، 1435هـ-2014م، ص 354.

([3])- نفس المرجع، ص 41.

([4])- أنظر عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ج1، ص91.

([5])- انظر، الحكيم الترمذي، كتاب: بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب، تحقيق أحمد عبد الرحيم السايح، د ط، القاهرة: مركز الكتاب للنشر، 1997م.

نزّاعة للمعاصي دوما، بدافع من هواها وشهواتها. لقد خلق الله العبد ونفخ فيه الروح و وهبه العقل والذهن والعلم وكانت روحه حية بحياة القلب، لكن النفس تميتها بالشهوات التي تحجب العبد عن ربه، ولهذا احتاجت القلوب إلى الوعظ، وهو بمثابة الكير ينفخ في الجمر ليطير منه رماد الغفلة [1] ' خلق الله الإنسان وجعل له قلبا وجعله أميرا على الجسد ووضع في القلب معرفة ووكله بحفظ الجوارح من المعاصي، ومنح العبد عقلا يعقل (يحفظ) به نفسه من الخطايا، ووضع فيه المعرفة والعلم، وجعل بطنه معدن الشهوات ووكل بها الهوى ووضع فيه ظلمة الجهل بالله، و العقل يسوقه إلى الله والهوى يسوقه إلى الشهوة... مما يحجبه عن ربه، وهي أعظم المصائب للعبد[2] ' حتى أن العلم، نفسه، إن لم يكن لله، عُدّ حجابا عنه، فهو جهلٌ سمي علمًا، وكل علم لا يحيي القلب مع الله، فالجهل خيرٌ منه [3]' وحتى العبادات قد تحتال النفس لتحقق بها شهوة، تُخلطها برياء، وهو الشرك الخفي، يقع فيه العبد، دون أن يدري بسبب استكثار العبادة والتمنّن بها... لكنّه يأتي يوم القيامة مفلسا، و تُرمى عبادته الكثيرة على وجهه، وهناك علامات لذلك في الدنيا، وهي أن بعض العباد قد يتركون واجبات إلى جنب نوافل، تجد الرجل يطيل القيام بالله ويعقُّ والديه، يصوم بالنهار ويسيء معاملة أهله وجيرانه، ويعود المرضى ويأكل الشبهات.... [4]

وعلى هذا الأساس أنكر الحكيم على أهل الرأي والفقه ما يكتبونه في فروع الأحكام ؛لخلوّه من الرقائق والمواعظ التي تلين القلوب، مكتفين بمجرد تقرير الأحكام، ما أدى بهم إلى الوقوع في الزلات وتناول الشهوات، لإعجابهم بعلمهم بحفظ المسائل، ولشعورهم أن الناس بحاجة إليهم، فتنافسوا على الدنيا وتحاسدوا على مناصبها... [5]، حتى أنه اعتبرهم حمّال أسفار، لأنهم حملوا العلم ولم يعملوا به، وهي إشارة منه إلى قوله تعالى:"مثل الذين حمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا..." (الجمعة/5) .ولا يذمُّ الحكيم، الدنيا وشهواتها لذاتها، وإنما يذمُّ فيها توظيفها واستعمالها بما يُشغل العبد عن العبادة، كما لا ينكر تناول الدنيا والتمتع بها، إذا كانت النية إرضاء الله، إما إذا كانت النية إرضاء النفس فسيكون العبد ممكورا به في ذلك، ولهذا تراه يمتدح الكسب الحلال بناء على سنة الأنبياء في العمل والتكسّب، ويذم البطالة والتبطل، لأنها خلاف السنة ومقاصد الشريعة، ويقول: "من كان لله أطوع كان رزقه أوسع" وهو دليل على بربط السعي في الرزق بعبادة الله وطاعته خلافا ما يروّجه البعض عن الصوفية وربطهم بالسلبية والتواكل، وقد كتب الحكيم الترمذي في ذلك رسالة :" بيان الكسب" .[6]

وفي سيره في الحياة، على العبد أن يحذر نفسه، كما يؤكد الحكيم، فلا يأمن مكرها أبدا ؛لأن النفس مخادعة ، تستهوي صاحبها، شيئا فشيئا حتى توقعه في الحرام، وحتى إذا يئست منه في شهوات الحرام جاءته مما يقوم به من طاعات لتفسد عليه طاعاته بالرياء وحب المكانة بين الناس...ولهذا يجب عليه أن يجادلها ويلزمها الحجة مثلا: "إذا أتته من قبل توفر النعم جادلها بأثقال الشكر، وإذا أتته من قبل القدر والجاه، جادلها بأن الجاه جاه الآخرة، وإذا أتته من قبل كثرة أعمال البر، لتدفعه لاحتقار

([1])- الحكيم، المسائل المكنونة، مرجع سابق، ص 50.
([2])- نفسه، ص58.
([3])-نفسه، ص82.
([4])- الحكيم الترمذي، أدب النفس، مرجع سابق، ص 76.
([5])- نفسه، ص ص 46، 47، 139 و140.
([6])-الحكيم الترمذي، آداب المريدين وبيان الكسب، مرجع سابق، ص142...170.

ما يقدمه الآخرون، ، فيعجب بعمله، فيحبطه، فعليه أن يجادلها بأن العبرة ليست بالكثرة وإنما بصدق القلب." [1]؛ " "إلا من أتى الله بقلب سليم" (الشعراء/89)، فعليه في كل الحالات أن لا يأمن مكرها..... والنّفس كالدابة الحرون (المتمردة على صاحبها) لا بد من رياضتها، وإلا هلكت وأهلكت .

يعتني الحكيم الترمذي ببيان مفهوم الرياضة، من سؤال يبدو أنه وجّه إليه في بيان حقيقتها، يجيب أنها من " الرَّضّ" وهو الكسر؛ ذلك أن النفس اعتادت اللذة والشهوة فاحتاجت إلى كسر ما اعتادته، بفطمها عن العادة .ولا تؤمن حتى ولو سكنت، لأنها جبلت على العودة إلى الترغيب وتزيين الشهوات، لا تكل ولا تمل في ذلك . و عقلها (ربطها) ورياضتها أصل الفلاح والنجاة يوم القيامة.[2]

يرى الحكيم أن الهوى جوهر النفس ؛حيث خلق الله آدم من تراب فكان الهواء في عنصره الترابي، والهوى متنفس النفس، وهو مظلم بظلمة التراب، وتمّ نفخ فيه الروح وهي نور، فإذا طلعت منه الروح عاد إلى جنسه الترابي ظلمانيا، فالهوى من نفس النار إذا استولت على القلب تصير "نهِمة" فتغطي عليه، حتى يصير عماء، أما العقل فهو في الدماغ يشرق شعاعه على الصدر، فينير القلب، لكن النفس حين تغضب تغطي عليه، حتى يصير مجنونا، ولا يمكن للعبد أن يرفع نفسه ويرقيها إلى ربها إلا برياضة نفسه، وكبحها وفطمها عن شهواتها التي تجذبها إلى التراب... و لتحقيق المجاهدة عمليا يبدأ المريد بصيام شهرين متتابعين توبة لله، ويفطر على يسير الطعام، ثم يتقلل منه شيئا فشيئا، حتى لا يهلك نفسه، يعودها على الجوع [3]، ومن أصول المجاهدة أن تمنع النفس بعض الحلال حتى لا تطمع في الحرام، فإذا اعتادت لذة الكلام مثلا، إلزمها الصمت، حتى تعتاد السكوت، وتموت فيها شهوة الكلام...لأن أكثر ما يُكبُّ الناس على مناخيرهم في النار يوم القيامة، حصائدُ ألسنتهم، كما أخبر عليه الصلاة والسلام في حديث معاذ (رضي الله عنه)...ويبقى الصراع مستمرا بين القلب (الذي يقوى بالمعرفة) وبين النفس (التي تقوى بالشهوات)، والعبد بينهما كلما غلب القلب ارتقت الروح وسمت، وكلما غلبت النفس انحطت وتسفّلت إلى الأرض...وإذا يئست النفس من نيل حضوضها من الشهوات، انتقلت إلى حضوضها من الطاعات، خاصة في خلطها بالمباهاة ما يوقع العبد في الرياء، ما يحبط عمله، ويقترح الحكيم حلاً قد يؤمّن العبد مكر النفس في الطاعات وهو أن ينتقل من طاعة إلى أخرى، كلما وجدت راحتها في طاعة انتقل إلى طاعة أخرى، حتى لا يقر لها قرار، مع الحرص الشديد على إخفاء طاعاته، ولا ريب أن مكر النفس أشد من مكر الشيطان نفسه، لالحاحها وخفاء وساوسها.ولا ينجح ذلك إلا بالاستعانة بالله بالدعاء على وجه الاضطرار" أمّن يجيب المضطرّ إذا دعاه ويكشف السوء"(النمل/62) .... [4] . وقد درج الصوفية على ذم النّفس باعتبارها ظلمانية لا تأمر صاحبها إلا بالمعاصي، ولا ترغبه إلا في الشهوات التي تهلكه، ، ودعوا إلى التصدّي لمنعها وعقلها

([1])- نفسه، ص 129، 135 .أنظر أيضا كتابه : آداب المريدين وبيان الكسب، تحقيق عبد الفتاح عبد الله بركة، القاهرة:مطبعة السعادة، ص 17، 18.

([2])- الحكيم الترمذي، رياضة النفس، تحقيق احمد عبد الرحيم السايح واحمد عبده عوض، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 1422هـ-2002م، ص60.و كتاب :أدب النفس، مرجع سابق، ص ص34، 38، 50.

([3])- الحكيم الترمذي، رياضة النفس، ص 34، 35، أنظر أيضا : أدب النفس، مرجع سابق، ص114، 115.

([4])- الحكيم الترمذي، آداب المريدين وبيان الكسب، ، مرجع سابق، ص ص20، 21، 23، 24، 25.

برياضتها، التي لا تتم إلا بمعرفتها والاطلاع على أسرار مكائدها، يقول أبونجيب السّهروردي (الصُّوفي والفقيه الشافعي) (ت563هـ):" على المريد أن يجتهد في مراعاة نفسه، ومعرفة أخلاقها، فإن طبيعتها أنها أمّارة بالسوء (لاحظ صيغة المبالغة في أمّارة)، فلا ينبغي أن يغفل عنها وإن تناهى في المعرفة بها..قال أبو بكر الورّاق (ت 240هـ)النفس مرائية على جميع الأحوال، منافقة في أكثر الأحوال، مشركة في بعض الأحوال، وقال الواسطي (ت580هـ):"النفس صنمٌ والنظر إليها (طاعتها) شركٌ والنظر فيها (تفحصها لمعرفة أسرارها) عبادة. [1].ويقول الكلاباذي، أبو بكر محمد بن إسحاق البخاري (ت380هـ) : "أول ما يلزم العبد علم آفات النفس وسبيل الاحتراز منها....." ويقول أبو علي الدقّاق، الحسن بن علي بن محمد النيسابوري (405هـ): "من زيّن ظاهره بالمجاهدة حسّن سرائره بالمشاهدة، ومن لم يكن في بداياته صاحب مجاهدة لم يجد في هذه الطريق ثمّة، واعلم أن أصل المجاهدة وقوامها فطم النّفس عن المألوفات...." [2]

العلاقة بين النّفس والقلب.

يرى الحكيم الترمذي أن القلب إسمٌ جامعٌ لما في باطن الإنسان، مثل العين تجمع الأشفار، القدحة، ومثل البيت يجمع الأبواب والمتاع وغيرها، وكذلك القلب يجع الصدر والقلب ثم الفؤاد ثم اللبّ...فالصدر مقدمة مثل البياض للعين، وهو موضع الآفات والشهوات، يضيق أحيانا وينشرح أحيانا أخرى، والصدر موضع ولاية النفس الباطنة الأمارة بالسوء، وقد يكون موضعا لنور الإسلام والمعرفة وقد تنفث فيه النفس وساوسها ورغباتها، فإذا استمرت قد تصل إلى القلب فتعميه، والقلب داخل الصّدر كالبياض داخل العين، موضع نور الإيمان والتقوى والرضا، العلم، والنية، ثم يتلوه الفؤاد وسط القلب كسواد العين، "ما كذب الفؤاد ما رأى" (النجم/ 12)، كما أن القلب وسط الصدر، وبعد الفؤاد يأتي اللبّ كمثل النور للعين، وهو نور الفؤاد... [3]

وكل عنصر من هذه العناصر الأربعة مرافقات لبعضها يجمعها معنى القلب، والإسلام بمعنى التسليم لله بالعبودية في الصدر ويحمل النفس الظاهرة على الطاعات لكنه معرّضٌ لهواجس النّفس الباطنة التي يتشكل معدنها في الجوف حيث الحرارة و النتانة والظلمة، وهي متحالفة مع الشيطان في الإغواء، وهنا يأتي دور القلب الحارس الذي لا سلطان للنفس والشيطان عليه، فلا يتجاوز تأثيرهما الصدر" وليبتلي الله ما في صدوركم" (آل عمران/154)، " من شر الوسواس الخنّاس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس"(الناس/5)، فيحصل الضّيق في صدر المسلم بسبب نزغات الشيطان و وساوس النفس، "ولقد نعلم أنه يضيق صدرك بما يقولون" (الحجر/97)، وقد ينشرح الصدر بنور الله ومعرفته" ألم نشرح لك صدرك"(الشرح/1)، أما القلب فمنوّر بالإيمان، إلا إذا تسلل إليه الكفر أو الفسق من الصدر، من خلال النّفس الباطنة" ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليه غضبٌ من الله" (النحل/106)

([1])-السهروردي، أبو نجيب عبد القاهر بن عبد الله بن محمد، آداب المريدين، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 2005م، ص 32، 33.

([2])- وجيه أحمد عبد الله، الحكيم الترمذي واتجاهاته الصوفية، مرجع سابق، ص299، 300.

([3])- الحكيم الترمذي، بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب، تحقيق أحمد عبد الرحيم السايح، دط، القاهرة: مركز الكتاب للنشر، 1997م، ص ص 17، 19، 20، 21.

ومنه جاء قوله تعالى:" قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم" (الحجرات/14) ويضاف للقلب البصر والعمى، ولا يضاف ذلك للصّدر، :" فإنّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصّدور"(الحج/46)، أما في قوله تعالى:" وربك يعلم ما تُكنّ صدورهم وما يعلنون" (القصص/69)، فهذا، حسب الحكيم الترمذي، يُذكر من قبيل المجاز اللغوي فقط، والمقصود به القلب.. [1] ويشير الحكيم إلى ما تحتويه بعض الآيات من إشارة إلى النفس ويراد منها القلب، كقوله تعالى على لسان موسى عليه السلام:" تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك"(المائدة/116)، فالمراد به وساوس النفس في الصدر التي تنتقل بها إلى القلب، فإن ثبتت أهلكت...وكل علم تحمله النفس ويعيه الصدر، فإنها تتخذه مطية لشهواتها، فيصبح مهلكا، لما يؤدي إليه من زهو وغرور..والقلب سر إلهي يحمل العلم النافع:" إتقوا الله ويعلمكم الله" (البقرة/282)، فيه توحيد الله بمظاهر الجمال والجلال الإلهي، وهنا يذكر الحكيم ما أكده الصوفية من قبله قاعدة:ط من اتقى بالعلم الظاهر وأنكر العلم الباطن غفهو منافق، ومن اتقى بالعلم الباطن ولم يتعلم العلم الظاهر فهو زنديق، وكان علم باطنه محض وسوسة، ، ، ، ، ، فالعلمان متكاملان لا غنى لأحدهما عن الآخر.. [2] وهذا ما ذكره الفقيه المالكي الصوفي أحمد زرُّوق في قواعد التصوف : ((.....فلا تصوّف إلا بفقه، إذ لا تُعرف أحكام الله الظاهرة إلا منه، ولا فقه إلا بتصوف، إذ لا عمل إلا بصدق وتوجه، ولا هما إلا بإيمان، إذ لا يصح واحد منهما بدونه، فلزم الجميع لتلازمهما في الحكم، كتلازم الأرواح للأجساد، إذ لا وجود لها إلاّ فيها، كما لا كمال له إلا بها، فافهم .ومنه قول الإمام مالك رحمه الله: **(من تصوّف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق)** .قلت : تزندق الأول: لأنّه قال بالجبر الموجب لنفي الحكمة والأحكام. وتفسق الثاني: لخلو عمله عن صدق التوجه الحاجز عن معصية الله تعالى وعن الإخلاص المشترط في العمل لله، وتحقق الثالث: لقيامه بالحقيقة في عين التمسك بالحق، فاعرف ذلك..)).... [3].

وأما اللبّ عند الحكيم، فهو مركز القلب وبه قوام الدّين، ومعدن نور التوحيد لا تقربه شهوة ولا تتمكن منه نفس، واللب غير العقل والفرق بينهما مثل الفرق بين نور الشمس ونور السراج، ونور السراج علم ونور الشمس هداية ومعرفة، فالعقل يشع العلم أما اللب فيشع المعرفة، ومجاهدة النفس تبدأ بلطف الله، ومن حصل المجاهدة كان من أولي الألباب :" واتقوا الله يا أولي الألباب"(المائدة /100).. [4]

-النفس الأمارة:"إن النفس لأمّارة بالسُّوء" (يوسف/53)

- النفس الملهمة:"فألهمها فجورها وتقواها"(الشمس/8)

- النفس اللوّامة: "ولا أقسم بالنفس اللوّامة"(القيامة/2)

([1])- المرجع السابق، ص ص، 22، 25، 28، 33.

([2])-نفس المرجع، ص ص، 34، 37.

([3])-أحمد زروق، قواعد التصوف. تقديم وتحقيق عبد المجيد خيالي، ط2، بيروت: دار الكتب العلمية، 1429هـ-2005م، ص22.

([4])- الحكيم الترمذي، المرجع السابق، ص 55، 56.

– النّفس المطمئنّة:"يا أيتها النفس المطمئنة، إرجعي إلى ربك راضية مرضية" (الفجر/27 .28)

لم يكتف الحكيم الترمذي بتشخيص المرض (البُعد عن الله) ودراسة وتحليل السبب، وهو الاستسلام للنفس الباطنة، بل إنه اجتهد في بيان طريق الخلاص، و تحليل سبيل العلاج، وهو اجتهاد عارف مجرّب، ...فانطلاقا من بيان طبيعة النفس الظلمانية، الشهوانية، المغوية بالشهوات، التي لا تأمر إلا بالسُّوء (الفحشاء والمنكر) الذي يحجب العبد عن ربّه ويختم له بالنار، والعياذ بالله. ، يقترح الحكيم، كعالم صوفي متمرّس، على المؤمن طريق المجاهدة، والرياضة، لنيل الهداية:" والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سُبلنا وإن الله لمع المحسنين" (العنكبوت/69)؛لأن خطورة النفس لا يمكن للعبد تجاوزها دون إعانة وتوفيق من الله، وما على العبد غلا سلوك طريق المجاهدة، ، ، وعليه فإن إرادة القرب وهب من الله طبيعة في عبده، لكن النّفس، تُميتها بالشهوات واتباع الهوى... وعلى العبد رياضة نفسه بفطمها عن مألوفاتها، حتى تتعوّد الزهد في الدنيا، وهو أمر يطهر العبد منه قلبه ليكون خالصا لله وحده، فينزع عنه حجاب الدنيا بالفقر، ويقصد به الزهد، وهو أن يطهر قلبه من حب الدنيا والتعلق بها، وينزع حجاب النّاس بالعزلة وعدم التعلق بهم، وينزع عنه حجاب النفس، بمخالفة الهوى.. [1] . حرص الحكيم الترمذي على كتابة رسالة سماها (الاحتياطات)، ضمّنها نصائح للسائرين في طريق التربية، حتى لا ينتكسوا تحت ضغط الشهوات التي تلح بها نفوسهم، فشدّد على وجوب التفقّد للنفس ودوام مراقبتها للافلات من مكائدها، مع المداومة على الذكر والدعاء للوقاية الإلهية، تجديد الطهارة في جميع الأوقات والإكثار من صلوات النفل، وتجديد الإيمان والتقوى وشكر النعم والتوكل على الله، وغضّ البصر والسّمع لأصحاب الدنيا والشهوات. [2] . "وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى.." (طه/131)، فلابد لسالك الطريق أن يصل المسلمين كلهم بالحب والألفة، فلا يحمل حقدا على أحد؛لأن راحة القلب في حب الله والألفة لمخلوقاته جميعا.. [3].وهذا ما تقوم عليه التربية عند الصوفية الذين يقول عنهم العز بن عبد السلام أنهم قعدوا على أساس الشريعة وقعد غيرهم على الرسوم (المظاهر) ...وذلك لأنهم عملوا واجتهدوا وجاهدوا أنفسهم.. ' ويقرر، وهو الفقيه الشافعي المبرّز، أن" **كل شريعة لا حقيقة لها عاطلة، وكل حقيقة لا شريعة لها باطلة**"[4]' وهي قاعدة في ارتباط الشريعة التي انشغل بها الفقهاء والحقيقة التي انشغل بها الصّوفية، وكلاهما وجهان للدّين الإلهي الخالص...

خاتمة

اهتمّ الصوفية بقضية النفس الإنسانية، محاولين البحث في طبيعتها وخصائصها ودورها في حياة الإنسان ومصيره، باعتبار أن معرفة النّفس ضرورة لمعرفة الله...ولعلنا لا نبالغ في قولنا أن النفس كانت القضية المحورية في دراساتهم، باعتبار أن التربية والتسليك الروحي يدور عليها .... لقد كان الحكيم الترمذي، من بين أهم صوفية القرن الثالث الهجري اهتماما بقضية

([1])– الحكيم الترمذي، معرفة الأسرار، مرجع سابق، ص ص51، 64

([2])–الحكيم الترمذي، الاحتياطات، أعده وقدم له، عبد الواحد جهداني، ط1، لبنان: دار الكتب العلمية، 2011م، ص 66...79

([3])–نفس المرجع، ص 70.

([4])– العز بن عبد السلام، زبدة خلاصة التصوُّف، تحقيق محمد عبد الرحمن الشاغول، القاهرة: الجزيرة للنشر والتوزيع، د، ط، ص ص 09، 29.

النفس؛ حيث عمل على تحليل طبيعتها وتفكيك مكوناتها وفتح مغاليقها، فكانت النفس الباطنة الآمرة بكل شر، التي تتميز بخصائص الكيد والمكر، وتتبع في ذلك أساليب ووسائل بعضها ظاهر وكثير منها خفي، وعلى العبد معرفتها والاحتياط منها حتى لا تهلكه...

لا ريب أن العصر الذي نعيش فيه اليوم والتحديات التي تواجهنا، نفسيا واجتماعيا تضعنا في موقف نحن في أشد الحاجة إلى دراسة مثل هذه الأبحاث لعلماء تخصصوا في سبر غور النّفس الإنسانية، ومعرفة أسرارها، حتى نتمكن من مواجهة هذه المادية الجارفة التي تطبع سيرورة البشرية في اللحظة التاريخية التي نعيش أحداثها اليوم...والتي جعلت الإنسان يضيق صدره، ويصاب بيأس القاتل، بسبب نمط الحياة الاستهلاكي الذي يعيشه، والذي استسلم فيه الانسان لقهر شهواته المادية، ما يدفعه إلى نوع من الانتحار المعنوي...لقد استطاع الحكيم الترمذي، من خلال تفكير وتحليل حقيقة النفس، وتجربة في السلوك الروحي، ومعاناة الحيرة النفسية، أن يرسم لنا صورة واضحة عن طبيعة النفس وحاجياتها وكيفية تربيتها وفقه منهج تسليك روحي لإعمار القلب ليشعّ من أنوار الحق....وكل ذلك أسسه الحكيم بحكمة العقل وشفافية الروح على أساس من نصوص الشريعة التي يعلن أنها أساس الحقيقة ودعامتها...

المراجع:

– مؤلفات الحكيم الترمذي:

1) الحكيم الترمذي، ختم الأولياء، تحقيق عثمان إسماعيل يحي، بيروت: المطبعة الكاثوليكية، دط، 1965م.
2) الحكيم الترمذي، إثبات العلل، تحقيق ودراسة خالد زهري، ط1، الرباط: كلية الآداب والعلوم الانسانية، 1998م.
3) الحكيم الترمذي، آداب المريدين، وبيان الكسب، تحقيق وتعليق وتقديم، عبد الفتاح عبد الله بركة، د.ط، القاهرة: مطبعة السعادة.
4) الحكيم الترمذي، المسائل المكنونة، تحقيق، محمد إبراهيم الجيوشي، ط1، القاهرة: دار التراث العربي، 1400هـ-1980م.
5) الحكيم الترمذي، أدب النّفس، تحقيق وتعليق لأحمد عبد الرحيم السايح، ط1، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 1413هـ-1993م،
6) الحكيم الترمذي، معرفة الأسرار، تحقيق ودراسة محمد إبراهيم الجيوشي، د ط، القاهرة: دار النهضة العربية، 1978 .
7) الحكيم الترمذي، رياضة النفس، تحقيق احمد عبد الرحيم السايح واحمد عبده عوض، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 1422هـ-2002
8) الحكيم الترمذي، بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب، تحقيق أحمد عبد الرحيم السايح، دط، القاهرة: مركز الكتاب للنشر، 1997م
9) الحكيم الترمذي، الاحتياطات، أعده وقدم له، عبد الواحد جهداني، ط1، لبنان: دار الكتب العلمية، 2011م.

10)الحكيم الترمذي، غور الأمور، ضبط وتحقيق أحمد عبد الرحيم السايح وأحمد عبده عوض، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1422هـ -2001م.

- كتب أخرى:

1) أحمد زروق، قواعد التصوف. تقديم وتحقيق عبد المجيد خيالي، ط2، بيروت: دار الكتب العلمية، 1429هـ-2005م

2) العطار، ، فريد الدين، تذكرة الأولياء، ترجمة محمد الأصيلي الوسطاني الشافعي، تحقيق محمد أديب الجادر، دار المكتبي للطباعة والنشر والتوزيع، 2009م.

3) العمراني، علي بن عبد الرحمن بن محمد، نصيحة المريد في طريق أهل السلوك والتجريد، تحقيق عاصم ابراهيم الكيالي، ط1، بيروت: دار الكتاب العلمي، 1426هـ/2005م.

4) السكندري، إبن عطاء الله، الحكم العطائية، شرح إبن عبّاد الرندي، إعداد ودراسة: محمد عبد المقصود هيكل، إشراف ومراجعة عبد الصبور شاهين، د، ت. ط1، القاهرة: مركز الأهرام، 1408هـ-1988م.

5) السلّمي، عبد الرحمن، الطبقات الصوفية، ط2، تحقيق أحمد الشرباصي، القاهرة: طبعة كتاب الشعب، 1998م.

6) السهروردي، أبو نجيب عبد القاهر بن عبد الله بن محمد، آداب المريدين، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 2005م.

7) الشريف، عمرو، أنا تتحدث عن نفسها، ط2، مصر: مكتبة الشروق الدولية، ، 1435هـ-2014م.

8) الشعراني، عبد الوهاب، الطبقات الكبرى، تحقيق أحمد عبد الرحمن السايح، ط1، القاهرة: دار الفكر، ج1، د.ت.

9) القشيري، مسلم بن الحجاج بن مسلم، ، الرسالة القشيرية، تحقيق عبد الحليم محمود ومحمد بن الشريف، القاهرة: مطابع مؤسسة دار الشعب1409 هـ. هـ/1987م .

10)المحاسبي، الحارث بن أسد، ، الرعاية لحقوق الله، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، ط 4، بيروت: دار الكتب العلمية.د، ت.

11) المحاسبي، الحارث بن اسد، الوصايا، ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، ، 1406هـ/1986م.

12) العزّ بن عبد السلام، زبدة خلاصة التصوّف، تحقيق محمد عبد الرحمن الشاغول، القاهرة: الجزيرة للنشر والتوزيع، د، ت.

13)وجيه أحمد عبد الله، الحكيم الترمذي واتجاهاته الذوقية، ط1، الاسكندرية:دار المعرفة الجامعية، 1989م.